

مقومات الأخلاق عند الغزالي

عزت السيد أحمد

يعد الامام (الغزالي - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م - ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) واحداً من ألمع المفكرين العرب والمسلمين وأذيعهم صيتاً ، لما نهض به من دور حاسم فعال على الصعيدين الديني والفلسفي ، فاستحق على الصعيد الأول لقب حجة الاسلام ، « ولعله - على الصعيد الثاني - بشهادة معظم النقاد والمفكرين ، الوحيد من بين فلاسفة المسلمين ، الذي انتهج أسلوباً فلسفياً مميزاً مستقلاً عن أسلوب المدرسة اليونانية ، مفتتحاً بذلك أسلوباً فلسفياً جديداً » (١) « وليس من ريب في تجربة (الغزالي) الفلسفية تجربة غنية معقدة حية تتسم بالذكاء في كل مجرى ومنعطف وأن » (٢) .

فمن هو الامام (الغزالي) ؟

الحق أن ثمة مصادر جد كثيرة تطلعنا على حياة الامام (الغزالي) بمختلف مراحلها ، وعلى فلسفته ، ولذلك نستفيض في الحديث عن حياته وفلسفته ، وانما سنكتفي بالمختصر الوجيز الذي يقتضيه البحث .

هو : (زين الدين محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٢) الطوسي (٤)) المعروف باسم : (أبو حامد الغزالي) وبلقب « حجة الاسلام » ، ولد سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م ، بدأ بتلقي علوم الدين الاسلامي مبكراً ، ثم الفلسفة ، وباشر التعليم بنجاح وتفوق ، وقد درس كما أخبرنا كل الفرق الدينية والكلامية والفلسفية دراسة متبصر خبير ، حتى فقهها وتمكن من الرد عليها جميعاً ، ودحض الخاطيء

منها بانتقادها من داخلها ، لايمانه بعدم جدوى النقد الخارجي ، لأنه يظل سطحياً ، بعيداً عن جوهر وحقيقة الموضوع المنتقد ، وقد دفعه الى ذلك أن صديقاً حكى له أن المتفلسفة « يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، لأنهم لم يفهموا بعد حجتهم »^(٥) وليخلص من ذلك الى أن خير وأقوم سبيل للانسان هو سبيل التصوف الذي رسم لنا معالمة وحدده في أكثر من كتاب ، ولعل أبرزها « إحياء علوم الدين » و « المنقذ من الضلال » .

ورغم أنه تنكر لكثير من آراء الفلاسفة ونظرياتهم ، وعلى وجه التخصيص ما يتعارض مع تعاليم الاسلام ومبادئه ، الا أنه لم يفعل ذلك الا بتأييد الحجة والبرهان المناسبين لكل وقف ومقال ، ولذلك ظل أميناً للحقيقة ، حريصاً عليها ، مؤيداً للعلم ، مناصراً له ، حتى قدم لنادعائهم قوية يقيم عليها بناء المعرفة بناءً سليماً :

- ١ - فلقد وضع للمعرفة منهجاً قوياً .
- ٢ - وللعلم حداً دقيقاً يخلصه من عناصر الغموض واللبس .
- ٣ - وأظهر استحالة الوثوق بالعقل عن طريق العقل نفسه .
- ٤ - وضرب أمثلة جديرة بالاعتبار لبيان امكان خطأ العقل . أحكامه . وأخرى لبيان امكان خطأ الحواس .
- ٥ - ورد أساس المعرفة الى الالهام لا الى العقل ، اذ لولا الثقة في أن الله لا يمنحنا طبيعة مزيفة لما أمكننا التعويل على العقل في اكتساب المعرفة^(٦) .

وتوفي الامام (الغزالي) عن عمر يناهز الخمسين عاماً ، في الرابع عشر من شهر جمادي الآخرة سنة ٥٠٥ هـ الموافق لسنة ١١١١ م ، بعدما قدم لنا عدداً كبيراً جداً من الكتب والرسائل ، لعل أهمها : مقاصد الفلاسفة ومعيار العلم وتهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال وإحياء علوم الدين والقسطاس المستقيم وميزان العمل وإلجام العوام عن علم الكلام ومنهاج العارفين . . . وغيرها الكثير مما يضيق المجال عن ذكره الآن^(٦) فهو من أكبر المؤلفين حتى قيل إن مؤلفاته قد قسّمت على أيام حياته فخص كل يوم بأربعة كراريس .

فلسفته الأخلاقية

لم يكن علم الأخلاق بالعلم المحدث أيام (الغزالي) فكثيرون أولئك الذين تناولوا مسائل الفلسفة الأخلاقية قبله ، سيان كان في الفكر العربي الاسلامي ، أو في الفكر اليوناني ، والحق أن تتبع ما أثاره الامام (الغزالي) من مسائل تخص الفلسفة الأخلاقية يقودنا الى أنه قد عالج هذه المسائل انطلاقاً من وجهتي نظر متباينتين شكلياً ، على أن ذلك ليس يعني تناقضاً في فكر (الغزالي) وإنما هي نقلة من المستوى الفلسفي الى المستوى الديني ، فقد نظر الى الأخلاق نظرة دينية وقادها في منحى صوفي ، في الوقت الذي كان يعالجها ويتعامل معها بأسلوب الفيلسوف ولغته ، إلا أننا لا نميل الى الفصل بين آرائه على هذا النحو ، ذلك أن ثمة تداخلاً وتشابكاً بينهما على نحو يجعل هذا التفاصيل غير مسوغ ، فالنزوع الفلسفي لم يفارق الغزالي في أي من كتبه ، كما أن تأثير التعاليم والمبادئ الدينية قد ظل واضحاً أيضاً ، بل كان الطابع المميز له .

ومن أهم الكتب التي تناول فيها المسألة الأخلاقية هي احياء علوم الدين وميزان العمل ومنهاج العارفين والأربعين في أصول الدين والآداب في الدين ونصيحة الملوك والقواعد العشرة والمنقذ من الضلال . . . وغيرها .

أولاً : الأخلاق وعلم الأخلاق :

أ - تعريف الأخلاق :

يقدم (الغزالي) أكثر من تعريف للأخلاق ، ولكننا تعريفات متقاربة يصل بينها خط واحد يتمثل باصراره الدائم على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيئ ، ولعل أكثر هذه التعريفات دقة وضبطاً هو التعريف الذي قدمه لنا في « احياء » حيث يقول بعدما يبين لنا أن الأخلاق هي الصورة الباطنة للإنسان : « الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً ، وانما قلنا انها هيئة راسخة

لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وانما اشترطنا أن تصدر الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والمعلم» (٨) .

والحق أن الامام (الغزالي) لم يبتعد بهذا التعريف عن التعريفات المعاصرة للأخلاق على تعددها وتباينها، ذلك أنه ركز مفهومه للأخلاق على الفكرة الجوهرية التي يقوم عليها الفعل الأخلاقي ويصدر عنها ، وهي الرسوخ في النفس والتلقائية ، وأعني بذلك الوجدان والنية ، إذ الفعل الأخلاقي العرضي ليس موجبا لوصف فاعله بأنه أخلاقي ، أو غير أخلاقي ، كما أن إطالة التفكير وتكلف الجهد لدفع الذات الى الفعل الأخلاقي ليس كافيا لاعتبار صاحب الفعل متخلقا به .

ب - شروط الفعل الأخلاقي :

انطلاقاً من تعريفه للأخلاق يبين لنا الامام (الغزالي) شروط الفعل الأخلاقي فيرى أنها أربعة :

أحدهما : فعل الجميل والقبيح .

والثاني : القدرة عليهما .

والثالث : المعرفة بهما .

والرابع : هيئة للنفس بها تميل الى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين (٩) .

ومن ذلك يتبين لنا أن هذه الشروط الأربعة للفعل الأخلاقي متلازمة متكاملة ، أولها وجود الفعلين : الجميل والقبيح . وثانيهما : قدرة المرء على فعلهما معاً ، وثالثهما : معرفته بالفعل الذي يقوم به وقيمته التي يحققها ، وأخيراً الفعل الأخلاقي بحد ذاته وهو أهمها ، هذا الفعل الذي ينبغي أن يكون صدوره من غير روية وتفكير ، أي بصورة تلقائية ، ولذلك كما يقول الامام (الغزالي) : « ليس الخلق عبارة عن الفعل ، قرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو لرياء ، وليس عبارة عن القوة لأن نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحد ، وكل انسان خلق بالفطرة

قادراً على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء ، وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد ، بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر عنها هذا الامساك والبذل ، فالخلق اذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة» (١٠) .

ج - علم الأخلاق :

إذا كانت الأخلاق هي صورة النفس وهيئتها الباطنة ، فما هو علم الأخلاق؟

يقول الامام (الغزالي) في خاتمة كتابه « معيار العلم » : « إذا كانت السعادة في الدنيا والآخرة لا تنال الا بالعلم . . وكان يشتهه الحقيقي بما لا حقيقة له . . . وافتقر بسببه الى معيار . . فكذلك يشتهه العمل الصالح النافع في الآخرة بغيره . . فيفتقر الى ميزات تدرك به حقيقته . . فلنصنف كتاباً في ميزان العمل كما صنفناه في (معيار العلم) » (١١) . وكأنه يريد أن يقول لنا إن ميزان العمل هو علم الأخلاق ، أي أن علم الأخلاق هو العلم الذي يزين الأعمال البشرية ويميز بينها ليدلنا على العمل الصالح النافع الذي يقودنا الى السعادة ، كما يبين لنا العمل الفاسد السيء الذي يوصلنا الى الشقاء .

وبهذا المعنى يستهل الامام (الغزالي) كتابه (ميزان العمل) فيقول : « لما كانت السعادة التي هي مطلب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل . . وجب مرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقي ، فافتقر ذلك أيضاً الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه . . ونبين أن لا طريق الى السعادة إلا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله ، ثم العمل المسعد وطريقه » (١٢) .

ثانياً تهذيب الأخلاق :

إن الحديث عن امكانية تغيير الخلق وتهذيبه يفترض مسبقاً تبايناً في درجات الخلق ، وأن ثمة أخلاقاً مثلى وأخلاقاً دنياً ، وهذا التهذيب يهدف الى توجيه المرء نحو الخلق الأحسن والأمثل ولذلك لا بد لنا قبل الحديث عن تغيير الأخلاق وتهذيبها من أن نعرض للخلق الحسن الذي يعده (الغزالي) الغاية المرجوة من تهذيب الأخلاق .

١ - الخلق الحسن :

لم يقنع الغزالي بالتعريفات الكثيرة للخلق الحسن التي درج العلماء والفقهاء والأدباء على استخدامها ، ذلك أنها لم ترقه الى الدلالة المفهومية للخلق الحسن ، أي لم تعرض لحقيقته ، وإنما كانت تعرض لثمره الخلق الحسن ، كأن يقال الخلق الحسن هو « بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى ، أو هو إرضاء الخلق في السراء والضراء ٠٠٠ » (١٢) وغير ذلك من التعريفات الكثيرة التي لا تعدو - كما يقول (الغزالي) - كونها عرضاً لثمرات الخلق الحسن . ولذلك لم يجد (الغزالي) بدأً من تعريف الخلق عامة بادىء ذي بدء ، ثم يبين ما هية الخلق الحسن فيقول :

« فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث » (١٤) .

إن صلاح هذه القوى الثلاث وتهذيبها أو العدل في استخدامها وتوظيفها هو حسن الخلق ، والحق أن ثمة توافقاً وانسجاماً بين ما عرضه الامام (الغزالي) في كتابيه (الاحياء) و (الميزان) حول هذه القوى الثلاث وتعريف الخلق الحسن ، وإن تعددت التسميات بين مكان وآخر .

أما القوة الأولى وهي قوة العلم أو التفكير أو العقل « فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ٠٠٠ وثمرتها أن يتيسر (للمرء) الفرق بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، ولا يلتبس عليه شيء من ذلك » (١٥) .

والقوة الثانية قوة الغضب أو الحمية الغضبية « وحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة » (١٦) « وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم ، وهو كظم الغيظ ، وكف النفس عن التشفي ٠٠٠ » (١٧) .

وأما القوة الثالثة وهي الشهوة «فحسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، إشارة العقل والشرع» (١٨) «وبإصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر النفس عن الفواحش ، وتنقاد للمواصاة ولا يثار المخمود بقدر الطاقة» (١٩) .

٢ - علامات الخلق الحسن :

لأن غاية الأخلاق كما يرى (الغزالي) هي سعادة الآخرة فلا بد أن يستقي الفعل الأخلاقي قيمته من الإيمان بالله وما يقتضيه هذا الإيمان من التزام بالأوامر والنواهي ، ولذلك لجأ الأمام (الغزالي) الى القرآن الكريم ليستمد منه علامات الخلق الحسن ، ثم يعرج على الأحاديث النبوية الشريفة ليستمد منها أيضاً مؤشرات الخلق الحسن (٢٠) ولا يكتفي بذلك بل يقدم لنا هذه العلامات على نحوين فيقول :

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون المرء كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برّاً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً راضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شقيقاً ، لا لئلاً ولا سباباً ولا ناماً ولا مغتاباً ولا عجبلاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً ، بشاشاً هشاشاً يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ، فهذا هو حسن الخلق» (٢١) .

ويقول أيضاً : « علامة حسن الخلق عشر خصال ؛ قلّة الخلاف ، وحسن الانصاف وترك طلب العثرات ، وتحسين ما يبدو من السيئات . والتماس المَعذرة ، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه » (٢٢) ولمزيد هذه العلامات قدم لنا عن كل واحدة قصة أو حادثة ، ثم ليقول « ومن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض ، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده » (٢٣) .

ولكن ألا يحتمل أن يلتبس على المرء في بعض الأحيان فلا يدري إن كان مخطئاً أم مصيباً في تخلقه باحدى القيم الأخلاقية؟ لقد انتبه (الغزالي) الى هذه المسألة

ولذلك قدم لنا ميزاناً نزين به كل قيمة أخلاقية ، هذا الميزان هو الاعتدال بين النقيضين ، وقدم لنا أيضاً ميزاناً نزين به هذا الاعتدال لنعرف إن كان على صواب أم لا ، فيقول مبيناً ذلك بمثال :

« وأما علامات عودها الى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فالمطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور . فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاذه فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات الى المال فلا تميل الى بذله ولا الى امساكه » (٢٤) .

والحقيقة أن الامام (الغزالي) قد أدرك عسر هذه العملية وصعوبتها ذلك أن « الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى » (٢٥) كيما يتحسن خلقه ويقترب من الصراط المستقيم .

٣ - امكان تغيير الخلق :

يفرد (الغزالي) فصلاً خاصاً لتأكيد امكانية تغيير الأخلاق والذي دعاه الى ذلك أنه وجد أناساً جنحوا باعتقادهم الى أن الخلق كالخلق لا يقبل التغيير ظناً منهم أن المطمع في تغيير الأخلاق إنما هو طمع في تغيير خلق الله عز وجل ، وهذا اعتقاد باطل لا أساس له من الصحة . ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « حسنوا أخلاقكم » ويعقب على ذلك قائلاً : « ولو لم يكن ممكناً لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواظب والترغيب والترهيب ، فإن الأفعال نتائج الأخلاق » (٢٦) بل ويتعدى ذلك الى المقارنة بين الحيوان والانسان من هذه الناحية بنوع من الاستفهام الاستنكاري فيقول : « بل كيف ينكر تهذيب الانسان

مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن ، إذ ينتقل الصيد من التوحش الى
التأنس ، والطلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية ، والفرس من
الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق» (٢٧) .

ودفعاً للشبهة التي ألبرت على بعض الناس ودفعتهم الى الاعتقاد بعدم إمكان
تغيير الأخلاق يبين الامام (الغزالي) أن « الموجودات منقسمة الى قسمين أولهما
ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتحصيله كالسماء والكواكب ، بل أعضاء
البدن داخلاً وخارجاً ، وسائر أجزاء الحيوانات ، وبالجمله كل ما هو حاصل
كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله » .

والمقسم الثاني ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد
شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها
قابلة بالقوة لأن تصير نخلاً بالتربية وغير قابلة لأن تصير تفاحاً ، وإنما تصير
نخلاً إذا تعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها - وانطلاقاً من هذه الحقيقة وبالاستناد
إليها يعقب (الغزالي) قائلاً : - فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة
من أنفسنا ، ونحن في هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرهما ، واسلاهما
بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » (٢٨) .

٤ - تغيير الأخلاق بالرياضة :

يقر (الغزالي) بادیء ذي بدء بأن الجبال (الطبائع) مختلفة ومتباينة
فيقسماً لذلك الى سريعة القبول وبطيئة القبول ، ويرى لاختلافها سببين « أحدهما
باعتبار التقدم في الوجود ، فان قوة الشهوة وقوة الغضب ، وقوة التفكير
موجودة في الانسان ، وأصعبها تغييراً وأعصاها على الانسان قوة الشهوة ، فانها
أقدم القوى وجوداً ، وأشدّها تشبثاً والتصاقاً ، فانها توجد معه في أول الأمر ،
حتى توجد في الحيوان الذي هو جنسه ، ثم توجد قوة الحمية والغضب بعده ، وأما
قوة الفكر ، فانها توجد آخرأ ، والسبب أنه يتأكد الخلق بكثرة العمل بموجبه
والطاعة له » (٢٩) .

ثم يقسم الناس في تغيير الخلق الى أربع مراتب ، هي التي تحتاج الى إصلاح
وتهذيب أخلاقها وهذه المراتب هي :

« الأولى : وهو الانسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل ، والجميل والقبيح ، بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستنم شهوته أيضاً باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جداً ، فلا يحتاج الا الى معلم ومرشد ، والى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان . »

والثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول ، إذ قد تضاعف الوظيفة عليه ، إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصالح ، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن نهض لها بجهد وتشمير وحزم .

والثالثة : أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة ، وأنها حق وجميل ، وتربى عليها ، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال .

والرابعة : أن يكون من نشأته على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ، ويباهي به ، ويظن أن ذلك يرفع قدره ، وهذا هو أصعب المراتب . وفي مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب .

والأول : من هؤلاء جاهل فقط ، والثاني : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير ، (٣٠) .

إن الامام (الغزالي) بهذا التقسيم للنفوس التي يعوزها التغيير والاصلاح في أخلاقها يبين لنا حقيقة مهمة وهي ارتباط هذا التغيير والاصلاح بالاستعداد والمقابلية لهما ارتباطاً وثيقاً غير منفك ، وارتباطها كذلك بالحامل الفكري لهذه الأخلاق ، أي بقناعات المرء حول سلوك معين ، فمن اقتنع أن الزنا فضيلة وترسخ ذلك في نفسه ، لن يقبل بالعنفاء فضيلة . وتغيير هذا الخلق من وجهة نظر هذا الانسان إنما تكون باتجاه تعزيز (الزنا) وتوكيده لأنه يرى فيه قيمة أخلاقية

إيجابية ، وبالتالي فإن اصلاح هذا المرء كما يقول الامام (الغزالي) أمر جد صعب . بل هو أصعب المراتب ، وهو بحكم الميؤوس من صلاحه وإصلاحه .

ولكن كيف يمكن تغيير الأخلاق بالرياضة ؟

ما إن يتوفر لدى المرء الاستعداد اللازم والقابلية لتغيير الأخلاق حتى يغدو التغيير سهلاً يسيراً ، ذلك أن هذا التغيير يهدف الى إكمال النفس وتركيتها وتصفيتها ، وطريق هذا التغيير هو الارتياض والاعتياذ على الخلق الحسن ، فمن أراد أن يتخلق بخلق ما عليه أن ينكب على عادة لها تتبعه من غير روية وتفكير ، وفي ممارسته حتى يرسخ في النفس ويصبح عادة لها تتبعه من غير روية وتفكير وفي ذلك يقول :

« اعلم أن المقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة تكميل النفس وتركيتها وتصفيتها لتهدى بأخلاقها ، وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة ، تضيق العبارة عن تعريفه على وجه يتشكل في خزانة التخيل ، لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقولة ، وليس من غرضنا تبيان تلك العلاقة ، ولكن كل واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه ، فإن النفس إن كملت وكانت زاكية ، حسنت أفعال البدن ، وكانت جميلة ، وكذا البدن ، إن جملت آثاره حدث منها في النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية .

فاذن الطريق الى تزكية النفس اعتياذ الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة ، حتى إذا صار ذلك معتاداً بالتكرار ، مع تقارب الزمان ، حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال ، وتتقاضاها بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع ، فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير ، فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد ، وهو بذل المال ، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه ، فيصير بنفسه جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع ، وغلب عليه التكبر ، فطريقه في المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة ، على التكرار مع تقارب الأوقات » (٢١) .

إن المواظبة على التخلق بخلق معين تورث في النفس منه صفة راسخة ، هي بمثابة الطبع المتأصل في النفس الذي تصدر عنه الأفعال من غير كد روية ، إذ « العجب أن الأمر بين النفس والبدن دور ، إن بأفعال البدن تكلفاً ، يحصل للنفس

صفة ، فاذا حصلت الصفة فاضت على البدن فاقتضت وقوع الفعل الذي تعوده
طبعاً ، بعد أن كان يتعاطاه تكلفاً» (٣٢) .

يبدو جلياً من خلال ذلك أن الامام (الغزالي) يرى أن الانسان مجبول على
الخير والشر معاً ، وطبيعة التربية والارتياض والاعتیاد هي التي تورث المرء
طبعه الغالب عليه ، من حسن أو سوء ، خير أو شر ، وصلاح أو فساد . . . فمن
نشأ في منبت فاسد شرير غلب عليه طبع الفساد والشر . . . ومن نشأ في منبت
صالح حسن ظلّ على مثل ما نما عليه من صلاح ورشاد .

ولذلك فان الامام (الغزالي) لم يرفي تغيير الأخلاق إعداماً وقضاءً مبرماً على
بذرة الشر والسوء والفساد في نفس الانسان كما ظن البعض ، وإنما تغيير
الأخلاق هو قهر الطبائع السيئة الفاسدة واسلاسها وحسن قيادها ، وفي ذلك يقول :

وقد ظنت طائفة « أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ،
وهيئات ؛ فان الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة ، فلو انقطعت شهوة
الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب
بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ، ومهما بقي من أصل
الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصل الى الشهوة حتى يحمله ذلك على
إمساك المال ، وليس المطلوب إمادة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال
الذي هو وسط بين الافراط والتفريط ، والمطلوب في صفة الغضب حسن الحماية
وذلك بأن يخلو عن التهور وعن المجبن جميعاً ، وبالجمله أن يكون في نفسه قوياً
ومع قوته منقاداً للعقل» (٣٣) .

٥ - الطريق الى تهذيب الأخلاق :

يبين (الغزالي) طرق تهذيب الأخلاق ببراعة البصير الخبير بأدواء النفس
وأساليب معالجتها وتقويمها ، وبكيفية التعامل مع الانحرافات الأخلاقية ، كل
حسب ما يعاني ، مفصلاً في طرائق تهذيب كل اعتلال أخلاقي ، مبيناً علاجه الخاص ،
مستبدلاً ومستشهداً بالأساليب الطبية في معالجة الأدوية الجسمية بما يدل على
حسن درايته بالطب وأساليبه :

أبان (الغزالي) أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، وكما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه . ولذلك اتخذ البدن مثالا للنفس وراح يبين طرائق تهذيب الأخلاق .

إن علاج النفس يكون بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة وجلبها إليه ، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال . فكذلك المولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة - أي بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل - وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة . وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها ، واكتساب زيادة صفائها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها .

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن موجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب فإن علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتبهى تكلفاً .

وكما أنه لا بد من تحمل مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بد من تحمل مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب يدوم بعد الموت أبد الآباد .

وكما أن كل مبرد لا يصح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلّة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فانه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد - فكذلك

النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار ، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

وكذلك الأمر عينه أمر الشيخ المتبوع الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغي ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، بل ينبغي أن ينظر الى مرض المريـد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تتحمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته .

والحق أن هذا ، كما يقول الامام (الغزالي) طريق جملي (كلي) في تهذيب الأخلاق ، والكلام في تفصيله يطول ، والغرض أن ننظر الى تزكية نفوسنا في أخلاقنا ، فإن كانت مهذبة وجب علينا حفظها ، وإن كانت مائلة وجب تقويمها بالرد الى حد الاعتدال ، والمقصود من جلب الاعتدال سلب الطرفين ، إذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التي تلحقها بعوارض البدن ، حتى لا تلتفت إليها بعد المفارقة ، عاشقة ومتأسفة على قوتها .

ولذلك فقد عرض النماذج جد كثيرة من الرذائل وبين كيفية علاج كل منها ، ليعود الى التأكيد بأنه ليس يفرض الى ذكر دواء كل مرض ، وإنما غايته التنبيه على أن الطريق الكلي إنما هو سلوك مسلك المعتاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه ، وحتى لا يكون الأمر عشوائياً من غير ضابط بحيث تنتقل من داء الى داء آخر ، ومن مرض الى مرض آخر ، فقد أصر كثيراً على مسألة وضرورة مراقبة النفس دائماً في سلوكها وتصرفاتها (٢٤) .

٦ - معرفة عيوب الذات :

ومما يلحق بتهذيب الأخلاق واصلاحها ، ويتصل بهما اتصالاً وثيقاً ، معرفة عيوب الذات ، كيما يقف المرء على وجوه معاييه ويحسن الافادة منها في تغيير أخلاقه

وتهذيبها ، ويرى الامام (الغزالي) أن المتفكر نافذ البصيرة ، الذي يحسن استخدام عقله وتوظيفه لم تخف عليه عيوبه ، وبحسن تعقله وتفكيره يعالج ما يعرف من عيوبه لأن علاجها يقود الى كمال النفس ونزاهتها ، ولكن المشكلة تكمن في أن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ولذلك تجد أحدهم يرى القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، ولما كانت الحالة كذلك لم يجد (الغزالي) بداً من وضع مقياس يستند إليه المرء الذي يتوخى معرفة عيوب نفسه ، وينقسم هذا المقياس الى طرق أربعة (٣٥) :

الأول : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع إشارته في مجاهدته ، وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه ، ولكن الامام (الغزالي) يرى أن مثل هذا عز وجل وجوده ونادر في زمانه ، ولذلك قدم طريقاً آخر .

الثاني : أن يطلب صديقاً ضدو قاتماً تديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أقواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبه عليه ، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين ، ويستشهد لذلك ببعض الأقوال منها قول (عمر بن الخطاب - حوالي ٣٨ ق.هـ / ٥٨٦ م - ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) « رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي » . ولما ندر أيضاً وجود الصديق الصادق في وده وحبه ، ولما كان الصديق ينظر بعين الرضا فلا يرى إلا محاسن ، لم يكن هناك بد من تقديم طريق ثالث .

الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فان عين السخط تبدي المساويا ، ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عيوبه . ويجب على الانسان أن ينتبه الى أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولذلك ينبغي عليه أن يكون بصيراً حاذقاً، يعرف كيف ينتفع بقول أعدائه ، فان مساويه لا بد أن تنتشر على ألسنتهم .

الرابع : أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فان المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم

أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتفقد نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديباً • فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب ويستشهد لذلك بجواب (عيسى) عليه السلام عندما سئل عن أدبه فقال : « ما أدبني أحد ، رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته » •

ثالثاً : التربية الأخلاقية :

إن إيمان (الغزالي) بإمكان تغيير الأخلاق وإصلاحها يقودنا الى فكرة جديدة هي التربية أو التنشئة الأخلاقية ، وقد رسم لنا الفيلسوف منهجاً تربوياً واضحاً لتربية الانسان أخلاقياً ، ولم يقتصر في رسم هذا المنهج على المراحل المبكرة من حياة الانسان وحدها • وإنما تعداها الى كل مراحل حياته ، وما سبق وتحدثنا عنه من تغيير الأخلاق وإصلاحها وتهذيبها يمكن أن نعدّه تربية أخلاقية للانسان اليافع والراشد ، الذي بإمكانه أن يسلك أكثر من سبيل لمعرفة عيوب وتقويمها ، وليس هذا فحسب بل إنه وضع لكل فضيلة أخلاقية طرقها الخاصة التي تساعد على تنميتها وتعزيزها ، كما بين كيفية التخلص من الرذائل كل على حدة ، وهذا ما سنعرض له عند الحديث عن القيم الأخلاقية • أما الآن فسنتناول التنشئة الأخلاقية عند الأطفال بشكل عام ، ذلك أن هذه التربية أو التنشئة هي الأساس في تكوين رجل المستقبل وترسيخ القيم الأخلاقية في نفسه كما أشرنا قبل قليل •

إن تتبع الخطوات التي أثارها الامام (الغزالي) لتحديد منهجه في التربية الأخلاقية وضبطه ينبؤنا عن مبلغ عنايته واهتمامه بالجانب الأخلاقي ودرايته بفاليته في حياة الانسان ، كما يكشف بوضوح عن أصالة (الغزالي) في هذا الجانب والمتمثلة خصوصاً بالربط بين التصوف والفعالية الأخلاقية ، أو توجيه الأخلاق لتنحو منحى صوفياً ، متشعبة بوشاح روعي يضفي عليها طابعاً جديداً بحيث تغدو الممارسة الأخلاقية جزءاً صميمياً من الحياة الروحية للانسان •

يتكون هذا المنهج التربوي من مجموعة من الدعائم والخطوات يمكننا القول إنها تبدأ بالواجبات الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها أو امر ونواهي ، وبالتالي هي

ما ينبغي أن تتوجه التنشئة الأخلاقية الى تكريسه في حياة الطفل . ثم العوامل الضرورية والمساعدة للقيام بالعملية التربوية بصورتها المثلى ، ثم خطوات العمل التربوي والأسس التي ينبغي توفرها في المربي على نحو خاص ، وهي على النحو التالي :

١ - الواجبات الأخلاقية :

ينبغي في أن يراعى في تربية الأطفال توجيههم الى تقمص القيم الأخلاقية الايجابية ، أو الفضائل ، وإلى النفور من القيم الأخلاقية السلبية ، أو الرذائل على اختلاف أنواعها وتباين تسمياتها ، فيحذر من الجشع والطمع والكبر والكذب والنفاق واللعن والسب والسرقة والفحش والخيانة . . . وما جرى في مجرى هذه الرذائل . ويحجب إليه الصدق والأمانة والاخلاص والتواضع والوفاء والتأدب في معاملة الآخرين . . . وهلمَّ جراً من هذه الفضائل « فاذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً موثقاً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر . وإن وقع النشوء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والمواقحة وشربه الطعام واللباس . . . نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس» (٣٦) .

٢ - نقاء النفس :

يرى الامام (الغزالي) أن النفس البشرية صفحة نقية بيضاء تقبل كل نقش وصورة تعرض عليها . وها هو ذا يصف القلب الطاهر للطفل بأنه « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال إليه - أي أن الانسان يخلق قابلاً للخير والشر - فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وإن عود الشر وأُهل شقي وهلك» (٣٧) الأمر الذي يعطي للتربية أهم دور في تكوين الانسان وبناء شخصيته وتحديد معالمها وأبعادها ، وكثيراً ما ألحف (الغزالي) على ضرورة العناية بالأطفال وحسن توجيههم لما أدركه من أهمية التربية ودورها الحاسم في بناء شخصية الطفل .

والحق أن هذه الفكرة ذاتها - فكرة نقاء النفس - هي الفكرة المحورية التي بنت عليها المدرسة التجريبية الانكليزية بنيانها الفلسفي ، وبهذا المنعى ذاته يقول

(جون لوك - ١٦٣٢ - ١٧٠٤) : « إن النفس في الأصل كلوح مصقول لم ينقش فيه شيء ، وإن التجربة هي التي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً » (٢٩) ويبدو التشابه بينهما واضحاً جلياً .

ولكن الامام (الغزالي) يرى من جهة ثانية أن الانسان مفطور على الميل الى القيم الأخلاقية الايجابية ، والى الخير عموماً ، ميلاً غريزياً ، وليس من تناقض البتة هنا كما يلوح به ظاهر القول « فاذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه والى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لوردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع . يضاهي الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب » (٤٠) .

وثمة تشابه أيضاً هنا بين (الغزالي) و (لوك) فرغم أن الأخير حاول أن يبرهن « على وجود الله وعلى ماهيته في آن واحد دون حاجة الى معنى غريزي » - إلا أنه - قرر أن عقلنا يجهل الكنه ولا يدرك سوى الظاهر . فهو يعود الى فطرة العقل برغمه ودون أن يشعر » (٤١) .

ويبدو من خلال هذا النص أن (الغزالي) ظل مخلصاً لما ذهب إليه من نقاء النفس، تأكيداً منه على الحرية والاختيار ، ولذلك نجد من يستلذ بالباطل كما نجد من يستلذ بالحق ، وإنما هذا الميل الفطري الى الحق بمثابة برهان على وجود الخالق الذي خلق مع الانسان ما يقوده إليه .

ومن ذلك نرى أن التربية بقدر ماهي مهمة وضرورية ، ومعقدة أيضاً ، فانها سهلة يسيرة إن كانت تسير في الطريق الصحيح لأن المربي لن يجد صعوبة بالغة في إيصال الصواب الى النفس لأنها تميل إليه بطبيعتها .

٣ - ضرورة المعلم :

ولا بد للطفل من معلم مرب يحسن زرع الفضائل في نفسه ونزع الرذائل منها ، وفي هذا يقول : « اعلم أنه ينبغي للسائل شيخ مرشد مرب ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ، ويجعل مكانها خلقاً حسناً ، ومعنى التربية يشبه عمل الفلاح

الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته
ويكمل ريعه» (٤٢) .

إن إلحاف الامام (الغزالي) على ضرورة المعلم المربي مع عدم تبيانه إن كان
بإمكان الأب القيام بهذا الدور يعني أنه يميل الى عدم كفاية الأسرة كفاية مطلقة
في تربية الطفل ذلك أنه ليس من الضرورة أن يكون كل الآباء والأمهات على درجة
من الوعي والمعرفة تؤهلهم للقيام بدورهم التربوي على أكمل وجه ، ولذلك لا بد
من المعلم المختص الذي يعرف كيف يكتشف الأدواء ويحسن علاجها .

٤ - توظيف العلم :

يرى الامام (الغزالي) أن العلم ليس يطلب لذاته ، وإنما له وظيفة ودور
في حياة الانسان ، وهو تحسين وتجويد العمل ، وإفادة الانسان في مختلف مراحل
وظروف حياته ، ولذلك يشبه لنا حافظ العلم بالمدجج بالأسلحة ، فإن استخدم هذه
الأسلحة عند كل حاجة لها فقد أفاد من حملها ولم يكن حملها عبئاً لا عمل له إلا
إثقال كاهله ، وإن اكتفى بحمل الأسلحة ، وتعرض للخطر دون استخدامها فقد هلك ،
ولم يفته عن الهلاك ما تدجج به من أسلحة ، وهذا حال حامل العلم الذي لا يسخره
للافادة منه ، وبذلك يغدو وكأنه خلو من العلم لأن العلم لا يقوم من ذاته بدفع
الشر عن صاحبه كما أن الأسلحة لا تدفع الخطر عن حاملها من تلقاء ذاتها (٤٣)
ولذلك قال : « العلم بلا عمل جنون ، والمعمل بغير علم لا يكون » (٤٤) .

٥ - دور القصص :

ويرى (الغزالي) أيضاً أن للقصص دوراً هاماً في غرس الفضائل في قلوب
الأطفال وفي دفعهم الى التخلق بالأخلاق الحسنة ، اللهم إن كانت هذه القصص
موجهة الى هذه الغاية ، وإلا فإنها ستغرس بذور الفساد في نفوس الأطفال ، ولذلك
على الطفل أن « يتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم
لينغرس في نفسه حب الصالحين » (٤٥) ويقتدي بهم ويتخلق بأخلاقهم ، كما عليه
أن يتبعد عن أخبار الفسق والمجون ، أولنقل ما يثير الانفعالات الشهوية
والهيجانات العاطفية « كالأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ... التي يعدها
أصحابها من الظرف ورقة الطبع » (٤٦) .

وقد أشبه (الغزالي) في ذلك الفيلسوف اليوناني (أفلاطون - ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) الذي طرد الشعراء من جمهوريته إذ يقول : « وإذا حل بدولتنا إنسان بارع في الظهور بكل الصور ومحاكاة كل شيء ، وأراد عرض قصائده على الجمهور فإننا سنكرمه تكريم قديس بارع ، ولكننا سنخبره أن ليس لمثله مكان في دولتنا ، وسنقصيه الى دولة أخرى بعد أن نسكب العطر على رأسه » (٤٧) هذا رغم إيمانه (كالغزالي) بأهمية القصص في تهذيب نفوس الأطفال ، الأمر الذي حدا به الى القول : « ثم نوعز الى الأمهات والممرضات أن يقصصن ما اخترناه من تلك الخرافات (القصص) على الأطفال . وأن يكيفن بها عقولهم أكثر مما يكيفن أجسادهم بأيديهن » (٤٨) .

٦ - القدوة الحسنة :

وينبغي على المربي أن يكون القدوة الحسنة لمن يقوم على تربيتهم ، ولعل أفضل معيار للوقوف على ذلك هو موافقة القول العمل ، فمن وافقت أفعاله أقواله كان منسجماً مع نفسه ولاقت تعاليمه خير قبول لدى تلاميذه ، ولذلك من واجب « معلم - الصبيان أن - يبدأ بصلاح نفسه ، فان أعينهم إليه ناظرة وأذانهم إليه مصغية ، فما استحسنه فهو عندهم الحسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح » (٤٩) .

٧ - الحفظ من قرناء السوء :

ولأن رفاق السوء في الأغلب الأعم يفسدون من يرافقهم ، ولا سيما في سني الطفولة ، ولأن الصبي إن أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً ناماً لحوا ٠٠٠ » (٥٠) فقد أصر (الغزالي) على حفظ الصبيان من رفاق وقرناء السوء ، وفي ذلك يقول : « ويمنع - الصبي - من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعب والسب ، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك ، فان ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء » (٥١) .

٨ - ضرورة المراقبة :

وكيما تثمر التنشئة الأخلاقية هذه ينبغي ألا ينقطع المعلم أو الولي عن مراقبة الصبي ومتابعة سلوكه وأفعاله حتى مع استمراره في سلوك الطريق

الصحيح وممارسة الفعل الأخلاقي السليم» ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فانه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصاريستحي من شيء دون شيء ، وهذه هدية من الله تعالى وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه و تمييزه «(٥٢) .

وهذا يعني أن الطفل مع صفاء نفسه ونقاء قريحته يظل عرضة للتغير والتقلب في أخلاقه تبعاً للمحيط الذي يعيش فيه ، حتى ترسخ القيم الأخلاقية في نفسه ، وتصبح جزءاً من جبلته ، وهذا ما لا يتأتى إلا باستمرار الاتصال مع هذه الفضائل أو القيم الأخلاقية الايجابية .

٩ - التدعيم :

وينبغي أن نحجب الى الأطفال ممارسة الأفعال الأخلاقية الحسنة وأن نرغبهم في ذلك بمكافأتهم على كل مبادرة حسنة، وأن نعرف متى نتغاضى عن الخطأ . ولا سيما إن كان غير مقصود أو إن أدرك الطفل خطأه فراح يداريه ، وفي هذا يقول: « ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فان خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ، ولا يهتك ستره ، ولا يكشف ، ولا يظهر له أن يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ، فان إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة »(٥٣) .

ولقد استفاد علماء النفس والتربية من ظاهرة التعزيز هذه ، أو التدعيم ، في تفسير بعض الظواهر النفسية ، ولا سيما التعلم ، ومن هؤلاء العلماء (بافلوف - ت ١٩٣٣) و (ثورنديك - ١٨٧٤ - ١٩٤٩) و (كلارك هل - ١٨٨٤ - ١٩٥٢) والتي ترى في مجملها أن التعلم على عمومه مرتبط بالتدعيم بنوعيه الأولي والثانوي ، « والذي يفسر أغلب حالات التعلم عند الانسان هو التدعيم الثانوي الذي يتلخص في خفض التوتر الناشيء عن دوافع ثانوية كالحاجة الى التقدير والتشجيع بالألفاظ والمكافآت . . . »(٥٤)

١٠ - التقويم :

ولكن ماذا لو انزلق الصبي في الخطأ عن جادة الصواب ، وتكرر غلطه المرة بعد الأخرى ؟! يقدم الامام (الغزالي) لتلافي الغلط والانحراف وعلاجهما منهجاً رائعاً تتجه الأساليب التربوية الحديثة الى الأخذ به واعتباره الأنسب في معالجة أخطاء الأطفال ، ولهذا المنهج مراحل ثلاث تتناسب مع التماذي في الغلط بحيث لا نعالج الأخطاء كلها بأسلوب واحد ، وهذه المراحل هي :

أ - المعاتبة : هي أولى المراحل التي نقوّم بها أغلاط الأطفال عند بدء تكراره الوقوع في ممارسة أخلاقية فاسدة معينة ، وفي ذلك يقول : « فان عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سرّاً ، ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ، وأن يطلع عليك مثل هذا فتفصح بين الناس » (٥٥) .

ب - التوبيخ والزجر : ولأن كثرة المعاتبة تهون عليه سماع الملامة فينبغي ألا يكثر القول عليه بالعتاب حتى لا يهون عليه ركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، فاذا تمادى في ذلك فعلى المربي أن يكون حذراً في التعامل معه « وليكن حافظاً هيئته الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأُم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح » (٥٦) .

ج - اجتناب الضرب : وليسعى المربي الى اجتناب الضرب قدر المستطاع ، فان لم يكن من ذلك فليجعل « معظم تأديبه بالرهبة ، ولا يكثر من الضرب والتعذيب » (٥٧) والحق أن هاتين الخطوتين من المنهج التربوي - التدعيم والتقويم - ماثرة جليلة تضافان الى مآثر (الغزالي) الكثيرة ، بل إن منهجه التربوي بكليته له ولا يمكن أن تجحد حقها وجليل قيمتها .

١١ - ضرورة الترفيه :

ومما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أن النفس بحاجة الى بعض الراحة والترفيه بين الحين والحين ، وإلا فان استمرارية الجهد ومواصلة الكد والجهد في التلقين والتعليم ستؤدي الى النفور والهروب من ذلك ، وربما تورث عللاً أخرى ولذلك يقول (الغزالي) : « وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب (المدرسة) أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب (المدرسة) بحيث

لا يتعب في اللعب ، فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه الى التعلم دائماً يميئ قلبه ويبطل ذكائه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً» (٥٨) .

١٢ - تكوين الخلق وترسيخه :

وأخيراً بقي علينا أن نبين كيف يتكون الخلق عند الانسان ، وكيف يترسخ في نفسه وإن كنا قد ألمحنا الى ذلك في حديثنا عن تهذيب الأخلاق ، إلا أنه من الضرورة بمكان أن نعرض الآن للمنهج الذي رسمه (الغزالي) من اكتساب الخلق وترسيخه في نفس الانسان حتى يصبح طبعاً ، وفي ذلك يقول :

«إن الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعني النفس والبدن - فان كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة ، وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور ، ويعرض ذلك بمثال : وهو من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية - حتى يصير كاتباً بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجراحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن ، فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر عنه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما يصدر منه الابتداء تكلفاً ، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر الى القلب ثم انخفض من القلب الى الجراحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع» (٥٩) .

رابعاً : غاية الأخلاق :

غاية الأخلاق هي الثمرة أو النتيجة التي يتوخى الفاعل الأخلاقي من وراء فعله الى تحقيق اما الخير أو السعادة ، بل تحقيق الخير والسعادة بأن معاً ، ولكنه يميز على هذا الصعيد بين ضربين من الخيرات والسعادات ، فثمة خير دنيوي وخير آخروي ، وكذلك أمر السعادة فهناك سعادة دنيوية وسعادة أخروية ، فأيهما غاية الأخلاق ؟

لأن خيرات الدنيا وسعاداتها عرضية زائلة تؤول الى الفناء والانتهاى مع موت صاحبها ، ولأن « السعادة الآخروية التي . . . هي بقاء بلا فناء ، ولذة بلا عناء ، وسرور بلا حزن ، وغنى بلا فقر ، وكمال بلا نقصان . وعز بلا ذل ، وبالجمله كل ما يتصور أن يكون مطلوب ومرغوب راغب ، وذلك أبداً الأبد ، على وجه لا تنقصه تصرم الأحقاب والآماد » (٦٠) فقد ذهب الامام (الغزالي) الى التأكيد بأن « السعادة الحقيقية هي الآخروية ، وما عداها سميت سعادة اما مجازاً أو غلطاً ، كالسعادة الدنيوية التي لا تعيق على الآخرة ، واما صدقاً ، ولكن الاسم على الآخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل الى السعادة الآخروية ويعين عليه ، فان الموصل الى الخير والسعادة ، قد يسمى خيراً وسعادة » (٦١) .

صحيح أن خير الآخرة وسعاداتها هما غاية الأخلاق ، ولكنهما الغاية القصوى لها ، اذ للأخلاق غاية دنيوية هي أيضاً الخير والسعادة في هذه الدنيا التي نعيشها ، وهذا واضح جلي في سابق كلامه ، وليس هذا فحسب ، بل لقد أفرد فصلاً خاصاً لبيان أيضاً أن خير الدنيا غاية أخلاقية ، جاء عنوان هذا الفصل : « بيان البواعث على تحري الخيرات والصوارف عنها » وفيه يبين أن البواعث على طلب الخيرات ثلاثة : نفسية (الترغيب والترهيب) واجتماعية (المكانة بين الناس) وعقلية (طلب الفضيلة وكمال النفس) وهذه الأخيرة يمكن أن نسميها « فعل الخير لأنه خير » أو « الاقدام على فعل الخير لذاته » فيقول : « أما الخيرات الدنيوية فالبواعث عليها ثلاثة أنواع : الترغيب والترهيب بما يجري ويخشى في الحال والمآل . والثاني رجاء المحمدة وخوف المذمة ممن يعتد بحمده وذمه ، والثالث طلب الفضيلة وكمال النفس ، لأنه كمال وفضيلة ، لا لغاية أخرى وراءها » (٦٢) .

ولا فرق في ذلك بين خيري الدنيا والآخرة ، فهما في البواعث سواء ، وفي هذا يقول : « والخيرات الآخروية أيضاً هذاشأنها ، وبهذا الطريق تتفاوت الناس فيها ، اذ لا فرق بين الآخروية والدنيوية الا بتأخر وتقدم . والا فالخير مطلوب كل عاقل عاجلاً أو آجلاً » (٦٣) ومن ذلك نرى بأن الامام (الغزالي) يعتبر خيري الدنيا والآخرة بأن واحد غاية للأخلاق ، فخير الآخرة لأنه مطلق ما بعده خيره ،

وخير الدنيا لما فيه من بواعث نفسيه واجتماعية وعقلية . وهذا يعني
تسلسل القيم صعوداً من خير الدنيا الى خير الآخرة .

وكذلك الأمر في السعادة ، فسعادة الآخرة هي الغاية القصوى للفعل
الأخلاقي ، وسعادة الدنيا غاية أخلاقية أيضاً لأن ما يوصل الى الخير والسعادة خير
وسعادة ، «ولأن سعادة الآخرة لا تنال الا بأنواع السعادات الأخرى» وهذا ما أبان
عنه عند حديثه عن أنواع السعادة قائلاً : « فجملتها منحصرة في خمسة أنواع :
الأول السعادة الآخروية ، التي هي بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم
لا جهل معه ، وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل اليه الا بالله ، ولا يكمل الا
بالنوع الثاني ؛ وهو الفضائل النفسية - وهي أربعة : العقل والعفة والشجاعة
والعدالة - وانما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث ، وهي الفضائل البدنية
المنحصرة في أربعة أمور : هي الصحة والقوة والجمال وطول العمر ، ويتممها
النوع الرابع ، وهي الفضائل المطيفة بالانسان ، المنحصرة في أربعة أمور .
وهي المال والأهل والمز وكرم العشرة ، ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك الا بالنوع
الخامس . وهي الفضائل التوفيقية ، وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسديده
وتأييده ، فهذه السعادات بعد السعادة الآخروية » (٦٤) .

★ ★ ★

□ الهوامش :

- ١ - عزت السيد أحمد - الشك المنهجي : من الامام الغزالي
ديكارت - ضمن مجلة التراث العربي - اتحاد الكتاب
العرب - دمشق - العدد ٤٤ - ١٩٩١ - ص ١٢٦ .
- ٢ - د. عادل العوا - المذاهب الفلسفية - مطبعة ابن حيان
- دمشق - ١٩٨٦ - ص ١٨٧ .
- ٣ - الغزالي : نسبة الى صناعة الغزل ... وقيل نسبة الى
غزالة من قرى طوس .
- ٤ - الطوسي : نسبة الى مدينة طوس ، وهي مدينة من مدن
خراسان - نيسابور ... فيها قبر (الرشيد) بظاهر
مدينة نوقان بقرية يقال لها « ملياناد » .
- ٥ - ابو حامد الغزالي - المنقذ من الضلال - المكتبة الشعبية
- بيروت - دت - ص ٥٩ .
- ٦ - ابو حامد الغزالي - تهافت الفلاسفة - تحقيق سليمان
دنيا - دار المعارف - مصر - الشاهد من مقدمة المحقق
ص ٢٣ - ٢٤ .
وكذلك : عزت السيد أحمد - م - ص ١٣٤ .
- ٧ - للاستزادة حول مؤلفات الغزالي يمكن مراجعة كتاب
« مؤلفات الغزالي » للدكتور عبد الرحمن بدوي ، وهو
كتاب ضخم وهام يبين فيه المؤلف كتب الغزالي الموثوقة
والمنسوبة والمشكوك في نسبتها ...
- ٨ - ابو حامد الغزالي - احياء علوم الدين - دار المعرفه
للطبعة والنشر - بيروت - دت - ج ٣ - ص ٥٣ .
- ٩ - م - ص - ذاته .
- ١٠ - م - ص - ذاته .

- ١١ - أبو حامد الغزالي - ميزان العمل - دار الحكمة - دمشق / بيروت - ١٩٨٦ - ص ٨ .
- ١٢ - ميزان العمل - م.س - ص ١١ .
- ١٣ - احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٢ - ٥٣ .
- ١٤ - م.س - ص ٥٣ .
- ١٥ - احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٤ وكذلك ميزان العمل - م.س - ص ٥٤ وكذلك ميزان العمل - م.س - ص ٤٦ .
- ١٦ - احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٤ .
- ١٧ - ميزان العمل - م.س - ص ٤٦ .
- ١٨ - احياء علوم الدين - م.س - ذاته .
- ١٩ - ميزان العمل - م.س - ذاته .
- ٢٠ - هذه الآيات والأحاديث كثيرة يمكن الرجوع اليها في كتاب احياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، الفصل الخامس « علامات حسن الخلق » ص ٦٩ وما بعدها .
- ٢١ - احياء علوم الدين - م.س - ص ٧٠ .
- ٢٢ - م.س - ص ٧١ .
- ٢٣ - م.س - ص ٦٩ .
- ٢٤ - م.س - ص ٦٣ .
- ٢٥ - م.س - ص ٦٣ - ٦٤ .
- ٢٦ - ميزان العمل - م.س - ص ٥٤ وما بعدها احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٥ وما بعدها .
- ٢٧ - م.س - ذاته .
- ٢٨ - ميزان العمل - م.س - ص ٥٥ وكذلك احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٦ .
- ٢٩ - م.س ذاته .
- ٣٠ - ميزان العمل - م.س - ص ٥٥ وكذلك احياء علوم الدين - م.س - ذاته .
- ٣١ - ميزان العمل - م.س - ص ٥٦ - ٥٧ .
- ٣٢ - م.س - ص ٥٧ .
- ٣٣ - احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٦ - ٥٧ .
- ٣٤ - انظر ذلك مفصلا في ميزان العمل - م.س - ص : ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ .
- وكذلك في : احياء علوم الدين - م.س - ص : ٦٠ - ٦١ - ٦٢ .
- ٣٥ - انظر ذلك مفصلا في : احياء علوم الدين - م.س - ص : ٦٤ - ٦٥ .
- ٣٦ - م.س - ص ٧٣ - ٧٤ .
- ٣٧ - م.س - ص ٧٢ - ٧٤ .
- ٣٨ - المدرسة التجريبية الانكليزية ، وتسمى أيضا المدرسة الحسية وكذلك المدرسة الاختبارية ، ومن الماع أعلامها (توماس هوبس - ١٥٨٨ - ١٦٧٩) و (جون لوك - ١٦٣٢ - ١٧٠٤) و (جورج باركلي - ١٦٨٥ - ١٧٥٣ ؛ و (ديفيد هيوم - ١٧١١ - ١٧٧٦) .
- ٣٩ - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - دار القلم - بيروت - د.ت - ص ١٤٥ .
- ٤٠ - م.س - ص ١٤٩ .
- ٤١ - احياء علوم الدين - م.س - ص ٥٩ .
- ٤٢ - أبو حامد الغزالي - ايها الولد - مكتبة الغزالي - دمشق - د.ت - ص ٣٥ - ٣٦ .
- ٤٣ - م.س - ص ١١ .
- ٤٤ - م.س - ص ١٩ .
- ٤٥ - احياء علوم الدين - ج ٣ - م.س - ص ٧٣ .
- ٤٦ - م.س - ذاته .
- ٤٧ - أفلاطون - الجمهورية - ترجمة حنا خياز - دار القلم - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٠ - ص ٩٠ .
- ٤٨ - م.س - ك ٣ - ص ٦٦ .
- ٤٩ - أبو حامد الغزالي - الأدب في الدين - رسالة منشورة مع كتاب « المنقذ من الضلال » م.س - ص ١٥٤ .
- ٥٠ - احياء علوم الدين - ج ٣ - م.س - ص ٧٢ .
- ٥١ - م.س - ص ٧٣ .
- ٥٢ - م.س - ص ٧٧٢ .
- ٥٣ - م.س - ص ٧٣ .
- ٥٤ - انظر ذلك مفصلا في الفصل المعقود لنظريات المتعلم وتطبيقاته ضمن كتاب الدكتور أحمد عزت راجح - أصول علوم النفس - المكتب المصري الحديث - الاسكندرية - ١٩٧٢ م .
- ٥٥ - احياء علوم الدين - ج ٣ - م.س - ص ٧٣ .
- ٥٦ - م.س - ذاته .
- ٥٧ - الأدب في الدين - م.س - ص ١٥٤ .
- ٥٨ - احياء علوم الدين - م.س - ذاته .
- ٥٩ - م.س - ص ٥٩ .
- ٦٠ - ميزان العمل - م.س - ص ١١ - ١٢ .
- ٦١ - م.س - ص ٨٧ .
- ٦٢ - م.س - ص ٧٧ .
- ٦٣ - م.س - ص ٧٨ .
- ٦٤ - م.س - ص ٨١ - ٨٢ .